مساطيح..

الاستثناء والقاعدة

قبل أن تحل لحظة الرحيل بأيام يشعر بظلها الكئيب يمتد إلى كل شيء . تمتد يد ذات أصابع نحاسية باردة ، فتقبض على صدره ، يتراخى كل شيء من حوله ، وعوده لابنته الصغرى بأن يذهب معها وحدها إلى مدينة الملاهي لتنفرد به بعض الوقت ، رغبته في أن يكمل مع ابنه الذي على وشك التخرج حديثا مابدأه منذ أسبوع ولم يكمله ! حماسه لأن يوضح لابنته الكبرى بأن ما يريده بالتحديد هو أن تسيطر على حماسها وتلقائيتها لا أن تفقدهما !!

تمتد الظلال الكئيبة إلى من حوله ، فيكفون فجأة عن تذكيره بوعوده . يتعاملون مع لحظة سفره حين تقترب بصورة طبيعية ، وكأنها لاتختلف في شيء عن لحظات خروجهم للعمل كل يوم ، مع أن عمله في قطر آخر ، مع أن يوم عمله يمتد أحيانا عاما أو بعض عام ! يشعر بأن كل ما يفعلونه من أجل أن تمضي هذه اللحظة كشيء طبيعي أو غير طبيعي ، وأنهم بهذا يكشفون عن تلقهم أكثر مما يخفونه !

وفجأة يتذكر لحظة لقائه بهم التي لم يمض عليها سوى أسابيع ، إجازته كانت تحفل بأشياء غير طبيعية أيضا على الرغم من الفرح الطفولي الذي يغرق فيه الجميع ، على الرغم من عناق الأيدي والوجوه ، يدرك في قلب هذه اللحظة أن الفرح كالحزن ، كلاهما يستر أجزاء من الحقيقة ، وأنه في حاجة إلى بعض الوقت ، ليلتقي حقا بأولاده ، ليعرف أحزانهم المستورة ، ومخاوفهم الكامنة ، ويتسمع نبض تساؤلاتهم الحائرة !! ولايكاد يبدأ التواصل حتى تأزف ساعة الرحيل . منذ أكثر من اثني عشر عاما وهو يعيش هذه اللحظات ، يعيش تكرر هذه اللحظات . في البداية كان يتعامل معها كلحظات استثنائية ، يغالبها بقوة استثنائية ، وبكلمات حكيمة عن ضرورة التعايش بين ما هو طبيعي وماهو ضروري ، بين حاجة أبنائه إلى وجوده بينهم ، وبين حاجتهم إلى عمله بعيدا عنهم أيضا ، وهاهو الآن يرى الاستثناء يصبح قاعدة ، والضروري يطغى على الطبيعي ، والكلمات الحكيمة تفسح مكانها لصمت أكثر حكمة !

الآن يشعر بأن للزمان صلابة تفوق صلابة المكان ، وإذا كان الإنسان قدنجح في اختراق جاذبية المكان فإنه ما يزال عاجزا عن تغيير عاداته التي يصنعها الزمان ، وانت لاتروى القصة كاملة لمن لايمكنه أن يكون بجوارك في ساعة الجد ، ولم يعد يبصر في وضوح ما الذي يختبيء وراء الصمت الأكثر حكمة ، هل هو الاتفاق الكامل أم التواطؤ الكامل ؟ هل هو الخوف على مشاعره أم الخوف منها ، من أن يضعف الممثل عن أداء دوره ، فيتوقف العرض قبل وقته الذي لايجرؤ أحد على تحديده !! لايجرؤ أو لايريد ؟ حتى هو نفسه لايملك إجابة لهذا السؤال ، فبعض ما يخيفه بشأن مايجري في داخل أولاده ويستره صمتهم الأكثر حكمة ، شعوره ببعض مايجري في داخله ، ويهرب منه بالصمت نفسه !! قبل أن يحل الصمت ، كان يحدثهم عما كتبه « الفن توفلر » عن صدمة المستقبل ، عما يمكن أن يحل بمعنى الأسرة والصداقة والحب ، فهل هذا الصمت جزء من هذه الصدمة بعد أن أصبح المستقبل حاضرا والاستثناء قاعدة ؟ ! □

أبو المعاطي أبو النجا